

ما بين الهوية الوطنية

و

الهوية القومية

سؤال الهوية يقلق كل إنسان، إنه يعادل سؤال من أنا، والهوية مركبة، سواء قومية كانت أم وطنية. كلاهما ينطلق من وجدان، والوجدان تشكله عوامل كثيرة، أولها الحب والانتماء، يليها التاريخ، الحاضر، ورؤى المستقبل، العادات والتقاليد والمشاعر ووسائل الإنتاج، الجغرافية والحدود، العقيدة واللغة والمصالح المشتركة.

إذا دخلنا بتعريفات نظرية لأي منها سنضيق في تعريفات مختلفة، لعلم الاجتماع والفلسفة، والنظريات السياسية وتجارب التاريخ ولا أظن أن هناك متسع لذلك. لنبدأ بتحديد معالم الهوية الوطنية، وهي انتماء لوطن، معلوم الحدود التاريخية أو السياسية، يسكنه شعب متجانس، يجمع بين أفراده لغة وتاريخ ومصالح مشتركة، وعقائد مختلفة، ينتظم فيها غالبية السكان.

ويخضعون لنظام سياسي، تفصل فيه الحقوق والواجبات بقوانين نافذة، حتى وإن كانت لا تستجيب لرؤى وطموحات بعض أفراده. وبالتالي فإن الهوية الوطنية انتماء لوطن، ولا يصلح لتشكيل الوطن، أي من المقومات المذكورة وحدها، بل هي مجتمعة تخلق الهوية الوطنية. والسائد في التاريخ المعاصر، الهوية الوطنية القطرية، التي انبثقت من هوية قومية، أشمل وأوسع وتتسع لهذه الهويات القطرية. كلكم تعرفون أن الدولة القومية، أو مفهوم الأمة، تشكل بعد الثورة الفرنسية في القرن السابع عشر، التي فرضت مبدأ أن الحكم للشعب، في الغاء للنظام الإمبراطوري، فتطلب ذلك تحديد من هو الشعب!!

هل هو الأفراد الذين تجمع بينهم اللغة، أم الدين أم العرق. تشكلت في أوروبا دولا متعددة على واحد أو أكثر من هذه الأسس. بالنسبة للعرب تبلور مفهوم القومية لديهم من خلال الصراع ضد الدولة العثمانية، القائمة على أساس الدين، ومتعددة القوميات العرقية والإثنية والعقائدية. وجد القوميون العرب أن ما يوحدهم ليس الدين، بل اللغة والتراث والثقافة العربية، وإن كان الدين الإسلامي، شكل منذ الفتح الإسلامي، تاريخ هذه البلدان، مترامية الأطراف، وكوّن وجدان معظم سكانه ثقافيا وحضاريا، دون احفاف بحق من لا يعتنقونه أو اجبارهم على تبنيه.

لقد كان من رواد الثورة العربية ضد العثمانيين والحركات القومية التركية كحزب تركيا الفتاة عرب مسيحيون قدموا للقومية العربية اسهامات كثيرة وخاصة في حقل الكتابة عن التاريخ العربي واللغة العربية، اذكر منهم على سبيل المثال جورج انطونيوس صاحب كتاب يقظة العرب والاخوان بشارة وسليم تقلا اللذان اسسا جريدة الاهرام المصرية قي نهاية القرن التاسع عشر ورشيد الشرتوني مؤلف كتاب مبادئ العربية الذي لا زال يدرس في معظم البلاد العربية. اسوق هذا الكلام للتأكيد ان القومية العربية كمفهوم ووجدان استند الى الثقافة والتاريخ والتراث العربي كوعاء يستوعب كل العروبيين

ظل هذا الوجدان القومي العربي يغذي حركات التحرر من الاستعمار الاجنبي حتى استقلت الدول العربية الواحدة حتى الاخرى ولكن للاسف ضمن الحدود التي رسمتها اتفاقية سايكس بيكو على ضوء نتائج الحرب العالمية الولى وهزيمة العثمانيين. ونكبت فلسطين بالانتداب البريطاني الذي رحل تاركا المشروع الصهيوني يتمظهر فيها بدولة اسرائيل العنصرية الفاشية.

اذن تكونت حركة قومية عربية، اساسها الثقافة والتاريخ والتراث العربي، اسهم في اطلاقها العرب من كل الطوائف والديانات لم يسمح لها الاستعمار بان تقيم دولة سياسية واحدة. فظهرت الدولة القطرية العربية والهويات الوطنية المحلية ولم تغلح الحركات القومية العربية وخاصة الناصرية وحزب البعث في تحقيق الوحدة.

ونتيجة التطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ومصالح الانظمة الحاكمة وعلاقتها الدولية.. اصبح لدينا 21 دولة عربية. وظهرت القطرية بصورتها الاقصى في السنوات الاخيرة

بشعارات ان مصر اولا او الاردن او لبنان وغيرها اولا... فهل هذا يتنافى مع مفهوم القومية العربية؟

ظاهر الامر يقول ذلك.. لكن الحقيقة هي انه مشروع ان يتم التركيز على الهوية القطرية.. دون قطيعة مع الدائرة والوعاء الاكبر الهوية القومية العربية.

لا تتناقض ابدا.. فالوطني المخلص لوطنه المحدد سياسيا وجغرافيا لا يمكن الا ان يكون قوميا عربيا بالمعنى الأشمل.. والقومي العربي الاصيل لا يمكن الا ان يكون مخلصا لوطنه المحدد سياسيا وجغرافيا.

اعود مضطرا للحديث عن خصوصية الهوية الوطنية المركبة.. فالوطن يعيش فيه افراد لكل منهم هويته الاصغر العائلية او المناطقية او الدينية او الإعقائدية او المهنية.

يكون الوطن بخير اذا توحد افراده بهوياتهم الخاصة ضمن هوية وطنية عامة تقوم على اساس الولاء للوطن.

اذا استيد اي فريق يمثل الاكثرية فهو يقسم الوطن ويخلق الانفجار.. واذا لم تحترم الاقلية رؤى الاكثرية فان ذلك يؤسس لانفجار اكبر لان للاكثرية والاقلية امتداد اقليمي وعالمي اوسع من حدود الوطن.. فيرتهن الوطن في هذه الحالة الى ظروف خارجية وقوى لا يهتمها من مصلحته الا تنفيذ اجنداتها الخاصة ولعل ما يحدث في لبنان والعراق وفلسطين شواهد حية على ذلك.

اما خصوصية الوطن الفلسطيني وهويته الوطنية فهي اكثر تركيبا وتعقيدا.. فالفلسطينيون لا يعيشون في وطن محدد الجغرافيا والحدود... بل يتوزعون على مناطق شتات مختلفة تنمو فيها هويات مختلفة.. ضمن التطورات الطبيعية للحياة والمجتمع والاقتصاد والسياسة... ولكن الانتماء للهوية الوطنية الفلسطينية لا يتناقض ابدا مع الهويات الوطنية الاخرى التي يعيشونها.. فللسطين حدودها التاريخية سكنها دائما شعب عربي الهوية والقومية، فلسطيني الخصوصية.. متجانس وموحد باللغة والتاريخ والتراث والعادات والتقاليد والمصالح، متعدد الديانات والعقائد.. اما لاجووه الذين شردوا قصرا فينتمون اليه من خلال توقعهم وعملهم الدائم للعودة ورفض التوطين... وبالتالي يتوحد الشعب في الوطن والشتات في العمل من اجل الخلاص من الاحتلال.

وبالتالي فان مرحلة التحرر الوطني التي يعيشها الشعب الفلسطيني تفرض ان تسود الهوية الوطنية الفلسطينية كتنقيض للصهيونية.. وتستند الى بعدها القومي العربي الاوسع.. والى من يناصرها في الدول الاسلامية واحرار العالم الذين يؤمنون بحق تقرير المصير للشعوب.

ضمن هذا السياق فاني اعاود التأكيد على ان الهوية الوطنية والهوية القومية متداخلتان ومتكاملتان ولا تتناقضان ابدا.. وضمان بقائهما هو الحفاظ على تنوع مكوناتهما بسيادة الحرية والتعددية واحترام الاخر... وحصول المواطنين في بلدانهم القطرية على حقوقهم في المواطنة: العدل والمساواة والحكم الرشيد، والابتعاد عن التعصب الديني او العرقي او الطائفي او الايديولوجي.

الوطن للجميع ومجموع اوطاننا الصغيرة تكون ما في وجداننا ووطننا العربي الكبير الحر والمستقل.. واذا تحقق ذلك فان اشكال التكامل بين هذه الاقطار كثيرة ومتعددة خاصة وان العالم الان يتجه الى الوحدات الكبيرة التي تكفل مصالح مفرداتها... ولعل الاتحاد الاوروبي.. متعدد اللغات والاديان والاعراق يشكل نموذجا يحتذى به.

فتحي البس